مجلة العاصمة

المجلد الثالث، ٢٠١١

مجلة مسجلة لدى المسجل للجرائد في الهند (RNI) برقم KERARA00011
ومجلة معتمدة لدى جامعة كيرلا، الهند

قسم العربية، كلية الجامعة، ترونتبرم، كيرالا، الهند، ٦٩٥٠٣٤

الإعجاز البلاغي للتقديم والتأخير في نهايات الآيات القرآنية «بين روعة المعنى، والتناسق الصوتي»

د/ أحمد عبد المجيد محمد خليفة

أستاذ مشارك، قسم العربية، الكلية الجامعية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، السعودية

مقدمة البحث

إن للتقديم والتأخير أسرارًا دقيقة: بلاغية، وجمالية يحتاج المرء لفهمها إلى فضل تأمل، وإمعان نظر، وفكرٍ دائبٍ، وقلبٍ يقظٍ، ومعرفةٍ تامةٍ بأسرار اللغة، وأساليب أدائها، وامتلاك محكم لناصيتها لفهم هذه الأسرار وتبيانها. ولسمو هذه الظاهرة الأسلوبية الراقية، ومكانتها من ذروة الفصاحة، وسنام البلاغة، وردت كثيرًا في الأسلوب القرآني الكريم.

أسئلة البحث

جاء هذا البحث يكشف النقاب عن أسرار هذه الظاهرة في القرآن الكريم، ويؤكد على أنها إحدى ألوان الإعجاز البلاغي فيه، ويجيب عن أسئلة فحواها: هل كان ورودها من أجل التناسق الصوتي فحسب كما ظن بعضٌ ؟ وهل خالف النَّظمُ القرآنيُّ فيها أصلَ اللغةِ العربيةِ لرعاية الفاصلة، أو مشاكلة المقاطع، ورؤوس الآيات، أو الفضيلة السجعية على حسب تسمية العلماء لها؟ وهل وردت هذة الظاهرة في غير الفاصلة ؟ وما الأسرار البلاغية وراء ورودها؟

الدراسات السابقة

هذا الباب هو "باب طويل عريض يشتمل على أسرار دقيقة([1]). تناوله القدامى والمحدثون، اكتفى بعضهم ببيان أصل العبارة في دراسة التقديم، ولم يذكر له سرًا، ولا سببا كابن قتيبة في كتابه: "تأويل مشكل القرآن" وذلك في قوله: ومن المقدم والمؤخر قوله تعالى من سورة الكهف : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا * قَيِّماً لِيُنذِرَ بَأساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَنَاً (الكهف:١ – ٢) أراد: أنزل الكتاب قيمًا ولم يجعل له عوجا، ومنه قوله تعالى من سورة هود: وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ [هود:٧١] أي: بشرناها بإسحاق فضحكت، وقوله من سورة الشمس: فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا (الشمس:١٤) أي: فعقروها فكذبوه بالعقر.([2]). ومنهم من يذكر له سرًا بلاغيًا كالباقلاني، وعبد القاهر الجرجاني، والزمخشري، وشمس الدين بن الصائغ الذي أورد له الإمام السيوطي في كتابه "الإتقان في علوم القرآن" ما ضمه كتابه: "المقدمة في سر ألفاظ المقدمة" الذي قال فيه: "الحكمة الشائعة الذائعة في ذلك الاهتمام، كما يقول سيبويه في كتابه: كأنهم يقدمون الذي بيانه أهم، وهم ببيانه أعنى، قال هذه الحكمة إجمالية، وأما تفاصيل أسباب التقديم وأسراره فقد ظهر لي منها في الكتاب العزيز عشرة أنواع: الأول: التبرك، والثاني: التعظيم، والثالث: التشويق، والرابع: المناسبة، والخامس: الحث عليه والحض على القيام به حذرًا من التهاون به، والسادس: السبق، والسابع: السببية، والثامن: الكثرة، والتاسع: لترقي من الأدنى إلى الأعلى، والعاشر: التدلي.."([3]) ثم قال السيوطي: "هذا ما ذكرها ابن الصائغ، وزاده غيره أسباب أخر، منها: كونه أدل على القدرة وأعجب.. ومنها رعاية الفواصل.. ومنها الحصر

([1]) المثل السائر قسم ص٢ ص ٢١٦ .
([2]) تأويل مشكل القرآن : اص ١٥٨ .
([3]) راجع : الإتقان : السيوطي ج٢ ص ٦٧٣ ،وما بعدها .

للاختصاص"([1]). كما تناول الظاهرة بعض المحدثين منهم الدكتور تمام حسان في كتابه: "البيان في روائع القرآن: دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني"، والدكتورة بنت الشاطئ في مؤلفها: "الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق (دراسة قرآنية لغوية بيانية)" وآخرون.

أولا : موقف العلماء من الظاهرة

ادعت طائفة من العلماء القدامى والمحدثين أن ما جاء من هذه الظاهرة في نهايات الآيات القرآنية خالف النَّظمُ القرآنيُّ فيها أصلَ اللغةِ العربيةِ لرعاية الفاصلة، أو مشاكلة المقاطع، ورؤوس الآيات، أو الفضيلة السجعية على حسب تسمية كل منهم لها. فقد صرَّح الفراءُ أبو زكريا الكوفي (ت ٢٠٧هـ) في كتابه "معاني القرآن" أثناء توجيهه الآيات القرآنية، وترجيحه بين القراءات بأن القرآن الكريم قد يقدم أو يؤخر، أو يحذف، أو يؤثر لفظة على أخرى في معناها، أو يعدل عن صيغة الكلمة إلى صيغة أخرى "لمشاكلة المقاطع، ورؤوس الآيات، وكأنه نزل على ما يستحب العرب من موافقة المقاطع" ([2]). كما رأى أبو عبيدة معمر بن المثنى البصري (ت٢١٠هـ): أن في الفاصلة القرآنية عدولا عن مألوف الاستعمال اللغوي، واحتج لهذا العدول بأن "العرب تفعل ذلك في كلامها"([3]) وهذه العبارة تلقانا كثيرًا في كتابه "مجاز القرآن". وذهب كثيرون مذهبهما على رأسهم أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العبكري(ت٦١٦هـ) في كتابه المرسوم: "إملاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن"([4])، وكذالك جمال الدين بن الأثير (ت٦٣٧هـ)([5])، والشيخ شمس الدين بن الصائغ صاحب كتاب: "إحكام الراي في أحكام الآي" وقد جمع فيه نيفا عن أربعين حُكْمًا، يرى أن القرآنَ الكريمَ خالفَ فيها قواعدَ اللغة العربية مراعاة للفاصلة، من بينها مسائل في التقديم والتأخير، أوردها جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت٩١١هـ) كاملة في كتابه "الإتقان في علوم القرآن"([6]) وحصرها بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي في كتابه: "البرهان في علوم القرآن" باثنى عشر موضعًا([7]) بينما نهج هذا المنهج من المحدثين الدكتور تمام حسان وآخرون. يقول تمام حسان: "للفاصلة قيمة صوتية ذات وظيفة مهمة تراعى في كثير من آيات القرآن، وربما أدت إلى تقديم عنصر، أو تأخيره من عناصر الجملة".([8])

ثانيا : الظاهرة من وجهة نظر بلاغية

نسى علماؤنا الأفاضل أو تناسوا -دون قصد- أن هذه الظاهرة الأسلوبية اللافتة في أسلوب القرآن الكريم هي منزع بلاغي أصيل، له دلالاته في توضيح المعنى المراد التركيز عليه، أو العناية به، أو تخصيصه، فما كان في بؤرة اهتمامك قدمته في حديثك، وما كان على هامش عنايتك أخرته، وكان فصحاء العرب وبلغاؤهم يقدمون اللفظة في موضع مَا طِبقًا للسياق، ويؤخرونها في موضع آخر لنفس الغرض، وقد سار القرآن الكريم على نفس أساليبهم، وهو المثل الأعلى في ذلك. وتلك ظاهرة بلاغية رائعة تكسب الكلام جمالا وتأثيرًا؛ لأنها وسيلة لنقل المعاني في ألفاظها للمتلقي، كما هي مرتبة في ذهن المتكلم، فيكون الأسلوب صورة صادقة لإحساس المتكلم، والغرض الذي يريد التركيز عليه كـ: تخصيصه، أو توكيده وتقويته، أو تعجيل المسرة أو المضرة، أو التلذذ، أو المدح أو الثناء، أو الذم والازدراء، أو الترغيب والترهيب... إلى غير ذلك مما يجيزه الذوق البلاغي، وقد فطن إمام النحاة سيبويه (ت ١٨٠هـ) إلى ذلك قائلا: "كأنهم يقدمون الذي

([1]) نفس المصدر: ج٢ص٦٧٩-٦٨٠.
([2]) انظر : توجيهاته لفواصل الآيات في "معاني القرآن"، أيضا الآيات: المرسلات ٣٢، الفجر ٤، الإنسان ١٨، الغاشية ١١، وغيرها
([3]) مجاز القرآن : أبو عبيدة ، ج١ ص ١٢ .
([4]) إملاء ما من به الرحمن : العبكري : ج١ ، ص١٢
([5]) المثل السائر : ابن الأثير ، قسم ٢ ، ص ٢١٤ وما بعدها
([6]) الإتقان : ج٢ ص ٦٧٣ ، وما بعدها .
([7]) البرهان : ج١ ص ٦٠ -٦٧
([8]) - البيان في روائع القرآن ص ١٩٩ وما بعدها.

بيانه أهم، وهم ببيانه أعْنى"([1]). فضلا عن أن اللغة العربية تتسم جملها بمرونة كاملة، وحرية كبيرة -إلى حد ما- في ترتيب أجزائها لوجود علامات الإعراب في الفصحى، والتي تفصح جلية عن وظيفة الكلمة في الجملة العربية، دون لبس أو أبهام، ومن ثمَّ تنوعت أشكال الجملة العربية، وتباينت من ناحية كل جزء فيها وفقًا للمعنى المراد التركيز عليه، وتأكيده، أو إبرازه والاهتمام به أثناء التخاطب وعلى حسب المقام "فلكل مقام مقال". فجملة مثل: "ضَرَبَ عمَّارٌ بلالاً" يمكن أن نعيد صياغتها في الفصحى بأشكال أخرى، فنقول: "ضربَ بلالاً عمارٌ"، أو "عمارُ ضربَ بلالاً"، أو "بلالاً ضربَ عمارُ". فكل صيغة من هذه الصيغ لها دلالة على المعنى المراد التركيز عليه، وإبرازه في الأسلوب البلاغي.

وقد ذكر عبد القاهر الجرجاني في دلائله أثناء حديثه عن التقديم والتأخير: إن البداية بالفعل لا تكون كالبداية بالاسم في الدلالة، وأن للتقديم فائدة في كل حال، لأنه من الخطأ أن يقسم الأمر قي تقديم الشيء وتأخيره قسمين: فجعل مفيدًا في بعض الكلام، وغير مفيد في بعض([2]). وهذه الظاهرة ليست قصْرًا على اللغة العربية دون غيرها، وإنما نجدها في كل اللغات الأخرى المعربة، فإن لقرينة الإعراب والبناء دورًا أوليًا مهمًا في ملاحظة تلك الظاهرة، واستشراف قيمها التعبيرية، إذ إنها تعين على تحديد الدلالة الوظيفية للكلمة داخل تركيبها، ومن ثم تتيح لها حرية الحركة بالتقديم والتأخير، تحقيقًا أو تقديرً ا.([3]) وبعد الذي سقناه توطئة لتدبر أسرار التعبير في هذه الظاهرة الأسلوبية اللافتة من البيان البيان المعجز، فإننا نلحظ من خلال الاستقراء لهذه الآيات الكريمة التي وقع فيها التقديم والتأخير من وجهة نظر بلاغية وجمالية أن الفاصلة القرآنية جاءت لتكمل معنى الآية التي وردت فيها، كما يتم بها –أيضا- الإيقاع الصوتي للعبارة، وأن هذا التناغم الصوتي ليس وحده هو الذي يحكم هذه الفاصلة أو تلك، أي أنه لا يصح أن يطغى على المعنى المراد من الآية فيعكس هذا المعنى، أو يغيره، وإنما يساهم في إنارته وتقبله.

ثالثا: أثر السياق في الفاصلة

وقد غابت هذه الحقيقة على علمائنا الأفاضل الذين ادَّعوا أن نظم اللغة القرآنية قد خرج عن أصله في بعض المواضع من أجل الفاصلة، أو مشاكلة المقاطع، أو الفضيلة السجعية، لأنهم أهملوا سياق الكلام العام الذي وردت فيه هذه الآيات الكريمة، ولم ينظروا إلى مدى ارتباطها الوثيق بما قبلها وبعدها من المعنى.

* فسياق الكلام في قوله تعالى: وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ [القمر:٤١]. هو الذي أوجب تأخير الفاعل (النذر) عن معموله (جاء) ولم يكن هذا التأخير لمراعاة الفاصلة فحسب كما يدعي بعضٌ. فقد جاء الحديث في الآيات السابقة لهذه الآية عن الذين كذبوا رسل الله (عز وجل) جاحدين للنبوة قبل قريش مثل: قوم نوح، وعاد، وثمود، ولوط، فقال تعالى كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ [القمر:٩]. ثم ورد الحديث بعد ذلك عما أصاب قوم نوح (عليه السلام) لتكذيبهم إياه، وما لاقاه منهم من عذاب ونهر بالشتائم والضرب، والوعيد بالرجم، في قولهم قالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ [الشعراء:١١٦] واتهامهم له بالجنون، فقالوا: إن الجنَّة ازدجرته، وتخبطته، وذهبت بلبه، وطارت بقلبه، ثم دعائه عليهم بعد أن استحكم اليأس من إجابتهم له، بأن ينتقم الله منهم بعذاب يبعثه عليهم، وقد فعل ذلك بعد أن طمَّ عليه الأمر، وبلغ السيل الزُّبا، فقد روي: أن الواحد من أمته كان يلقاه فيخنقه حتى يخرّ مغشيًّا عليه، فيفق، وهو يقول: "اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون". ثم جاء الحديث بعد ذلك في تكذيب هود (عليه السلام) فقال تعالى: كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ [القمر:١٨]. وبين كيف أرسل الله عليهم ريحًا صرصرًا في يوم شؤم ونحس، تقلع الناس من أماكنهم، وهم مصطفون آخذو أيديهم بأيدي بعض، ويدخلون في الشعاب، ويحفرون الحفر، فيندسون فيها،

([1]) - الكتاب : سيبويه : ج١ ص ٣٤.
([2]) راجع : دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجاني ص٧٦
([3]) التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية : دكتور أحمد محمد سعد ، ص ٢٠٢-٢٠٣.

فتنزعهم وتكبهم، وتدق قلوبهم، فكانوا يتساقطون على الأرض أمواتا، وهم جثث، كأنهم أعجاز نخل خاوية منقلع عن مغارسه. ثم ردف الحديث بعد ذلك بتكذيب قوم ثمود، فقال: كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ [القمر:٢٣]. وبين كيف أنكر قوم ثمود أن يتبعوا بشرًا منهم، وطلبوا أن يكون من جنس أعلى من جنس البشر، أي من الملائكة، وانتهى الأمر بهم إلى أن أرسل الله عليهم صيحة واحدة، فكانوا كالهشيم أي: كالشجر اليابس المتهشم المتكسر الذي يبس بطول الزمان في الحظيرة، وتواطؤه البهائم فيتحطم ويتهشم. ثم جاء الحديث في تكذيب لوط (عليه السلام) فقال تعالى: كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ [القمر:٣٣]. فكانت عاقبتهم أن أرسل الله عليهم بعد أن أنجى منهم آل لوط حاصبًا (أي ريحًا) تحصبهم بالحجارة، وطمس على أعينهم فجعلها كسائر الوجه، لا يرى لها شق عندما راودوا لوطًا (عليه السلام) على ضيفه، وأذاقهم ألوان العذاب. ثم قال تعالى: وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ [القمر:٤١]. ففي الآيات السابقة لهذه الآية الكريمة جاء الفاعل أولاً على أصل الكلام؛ للاهتمام بالفاعل وهو: قوم عاد، وثمود، ولوط، فاتصل الفعل بفاعله مباشرة، لأن الإخبار عنهم هو مناط الاهتمام والرعاية، والعناية وليس النذر، ولنفس السبب قدم المفعول به (آل فرعون) في قوله تعالى: وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ- على عامله النذر الواقع فاعلا، والذي تأخر عن موضعه الطبيعي بعد الفعل مباشرة، وعليه يكون تقديم المعمول على عامله ليس لرعاية الفاصلة فحسب، وإنما كان لملحظ معنوي بلاغي دقيق، وهو: الاهتمام والعناية بالمتقدم على المتأخر، ثم جاء الإيقاع الصوتي الراقي متممًا للمعنى تابعًا له، وليس مقصود لذاته (والله أعلى وأعلم).

* وعليه يكون أيضا-لا صحة لمن يقول: إن مراعاة الفاصلة([1]) أو الفضيلة السجعية([2]) هو السبب في تأخير الفاعل في قوله تعالى: فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى [طه:٦٧]، وتقديم المفعول به والجار والمجرور عليه. فتقدير الكلام: "فأوجس موسى في نفسه خيفة"، فالأهم في هذه الآية هو تصوير حالة الخوف التي كانت تنتاب نبي الله موسى (عليه السلام) والتركيز عليها، والتي كان يضمرها في نفسه، ولم يكن يعلمها إلا الله، ولم يدركها أحدٌ ممن حوله حتى شقيقه وشريكه في أمره هارون (عليه السلام) والذي كان واقفًا بجواره، ولا السحرة الذين جلبوا من أرجاء المدن، والناس حولهم كبهيم الليل المظلم، إذ ألقي السحرة حبالهم وعصيهم، فخيل إلى الحضور جميعا بأنها حية تسعى، فأراد الله في هذا الموقف العظيم أن يركز على جانب لم يبصره أحدٌ من الحضور وهو: حالة الخوف المستترة في نفس نبي الله موسى في هذه اللحظة، والتي تزلزل كيانه كلّه، دون أن يشعر بها أحد، وهو الأهم في هذا الموضع، لذا قدم الجار والمجرور (في نفسه) والمفعول (خيفة) على الفاعل موسى (عليه السلام).

* وقالوا برعاية الفاصلة السجعية في تقديم ما هو متأخر من الزمان في قوله تعالى من آية الليل إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى* وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى [الليل:١٢ – ١٣]: إن البيان القرآني عدل فيها عما هو مألوف ومتبادر من تقديم (الأولى) على (الآخرة)، ونحوه ما جاء في سورة النجم: فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَى [النجم: ٢٥] ولولا مراعاة الفواصل لقدمت الأولى، على شاكلة قوله تعالى من سورة القصص: وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [القصص:٧٠]. ونحن نعضد ما قالته بنت الشاطئ من أنه: "ليس القصد إلى رعاية الفاصلة هو وحده الذي اقتضى تقديم (الآخرة) هنا على (الأولى)؛ وإنما اقتضاء المعنى أولا في سياق البشرى والوعيد إذ الآخرة خير وأبقى، وعذابها أكبر وأشد وأخزى... وبهذا الملحظ البياني قدمت الآخرة على الأولى في سياق البشرى للمصطفى (عليه الصلاة والسلام)، قال تعالى: وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنْ الأُولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى [الضحى:٤ – ٥]([3]). ونضيف على بنت الشاطئ القول: إن (واو) العطف لا تفيد ترتيبًا ولا تعقيبًا، كما نص عليه النحاة أنفسهم، حتى يمكن أن نعتبر صحة

([1]) الإتقان : السيوطي : د٢ ، ٩٤٦.
([2]) المثل السائر : ابن الأثير ، قسم ٢ ، ص ٢١٩ .
([3]) الإعجاز البياني للقرآن الكريم ومسائل ابن الأزرق (دراسة قرآنية لغوية بيانية) : دكتور بنت الشاطئ ، ص ٢٧٧-٢٧٨ .

كلام المفسرين الذين قالوا: إن رعاية الفواصل هو السبب في عكس الترتيب، وتقديم (الآخرة) على (الأولى)، وأن هذه الآية الكريمة مثلها مثل آيات كثيرة، وردت في أسلوب القرآن الكريم لمجرد الجمع دون الأخذ في الاعتبار الترتيب والتعقيب، مثل قوله تعالى من سورة "المؤمنون": إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ [المؤمنون: ٣٧]، وقوله تعالى من سورة الجاثية: وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ [الجاثية: ٢٤]. والترتيب هو: نحيا ونموت، وليس هاهنا فاصلة مسئولة عن عكس الترتيب، إذ إن (الواو) العاطفة في أصل وضعها اللغوي لا تقتضي ترتيبًا، ولا تعقيبًا، فلو قلت: "وصل عمار وبلال اليوم من السفر" فإن هذه الجملة لا تعني أن (عمارًا) وصل قبل (بلال)، ولا معه، أو بعده، ولا تعني أكثر من وصول كل منهما من السفر اليوم. فالعطف هنا لمجرد الجمع دون إرادة الترتيب. وأن السياق- من الوجهة البلاغية- هو الذي يحتم تقديم هذه اللفظة في موضع، وتأخيرها في موضع آخر على حسب المعنى المراد التركيز عليه، كما هو في الآيات السابقة ومثيلاتها.

* وقد أنكر ابن الأثير على الزمخشري أن يكون تقديم المفعول به (إياك) على فعليه (نعبد ونستعين) للاختصاص في قوله تعالى من سورة الفاتحة: إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ [الفاتحة:٥]. ورأي أنه قُدِّمَ لمكان نظم الكلام، لأنه لو قال: "نعبدك و نستعينك" لم يكن له من الحسن ما لقوله: إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ألا ترى أنه تقدم: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ [الفاتحة:٢ – ٤] فجاء بعد ذلك قوله: إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ، وذلك لمراعاة النظم السجعي الذي هو على حرف (النون)، ولو قال: "نعبدك ونستعينك" لذهبت تلك الطلاوة، وزال الحسن ([1]).

ونحن نتفق مع ابن الأثير، ونخالفه –أيضا- في هذا الرأي، إذ كان محقا في بعضه، ومجانبًا للصواب في بعضه الآخر: فقد كان محقًا في كون النغم الإيقاعي له أثر كبير في جمال النظم القرآني المنبعث من التقديم والتأخير، ولو أننا استبعدناه لذهبت تلك الطلاوة، وزال ذلك الحسن، فنتفق معه في هذا الجانب. ولا نتفق معه في اثنتين: الأولى -إنه جعل الموسيقى السجعية هي الأساس في هذا التقديم والتأخير دون المعنى، فالقرآن الكريم لا يفصل بين المعني وأسلوب أدائه، فهو يهتم بالمعنى اهتمامًا كبيرًا، ويهتم أيضا - بالجانب اللفظي وصياغته اهتمامًا لا يقل عن اهتمامه بالمعنى، باعتباره وعاء المعنى ومناط التأثير، فضلا عن إفادته في توضيح المعنى، وتبيان بلاغته، فهما معا كلٌّ لا يتجزأ عن الآخر، وهنا يكمن السر في الإعجاز القرآني، وعدم القدرة على محاكاته. أما الأخرى - إنكاره على الزمخشري صراحة - ومن رأى رأيه- أن يكون التقديم في هذه الآيات قصد به الاختصاص -وهو ليس في نظره كذلك- إذ إن الاختصاص في هذه الآية الكريمة واضح ٌجليٌ، وحجة ابن الأثير في إنكاره واهية، فعندما نمعن الفكر، ونعيد النظر نجد أنه قُدِّمَ المفعول به (إياك) على فعلي العبادة والاستعانة في حين لم يفعل ذلك مع فعل(الهداية) فلم يقل: "إياك اهد" لأن الاستعانة والعبادة لا تكون إلا بالله وحده، دون سواه، فليس ثمَّ معبود إلا الله، وليس ثُمَّ من نستعين به غيره، فالعبادة والاستعانة مختصتان بالله وحده فقط دون سواه، أما (الهداية) فلم يقدم مفعولها على الفعل، فلم يقل: "إياك اهد" لأنه لا يصح تخصيص الهداية وقصرها على فئة من البشر دون فئة، فلا يصح أن نقول: (إيانا اهد) ولا تهدي غيرنا، أو لا تهدي معنا أحدًا من البشر، أو خصنا بالهداية واجعلها قاصرة علينا دون الناس، فيكون في هذا الدعاء أنانية للمسلم يأباها الإسلام، وحجر للهداية، وتعطيل لمنهج الدعوة العامة، وتضييق لسماحة الإسلام الذي يدعو الجميع إلى الهداية، والدخول في روضته، وعبادة الواحد الأحد اللامعبود سواه ، واللامستعان بغيره. وهناك ملمح بلاغي جميل أشار إليه ابن الأثير في أثناء حديثه عن المعاظلة المعنوية في تقديم السبب على المسبب ، في قوله تعالى: إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ [الفاتحة: ٥]، فقال: " فإنه إنما قدم العبادة على الاستعانة؛ لأن تقديم القربة والوسيلة قبل طلب الحاجة أنجع لحصول الطلب

([1]) راجع : المثل السائر : ابن الأثير ، قسم ٢ ،ص ٢١٩ .

وأسرع لوقوع الإجابة، ولو قال : "إياك نستعين وإياك نعبد" لكان جائزًا، إلا أنه لا يسد ذلك المسد، ولا يقع ذلك الموقع، وهذا لا يخفى على المنصف من أرباب هذه الصناعة"([1]).

* ومما قالوا فيه أيضا - برعاية الفاصلة ما ذهب إليه أبو البقاء العبكري في كتابه "إملاء ما من به الرحمن" من قوله تعالى في سورة البقرة: الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاة وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (البقرة: ٣) وقد أخر فيه (الفعل) عن (المفعول) وقدم فيما قبله، قوله تعالى الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاة وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ [البقرة: ٣] لتوافق رؤوس الآيات([2]). لا أحد ينكر النسق الإيقاعي وانسحاب الجرس الواقع من التقديم والتأخير في الآية الكريمة، وأثره الجمالي في الأسلوب، ولكن وراء هذا الملحظ البلاغي في النسق اللفظي ملحظًا بيانيًا آخر اقتضاه المعنى وطلبه، وهو تخصيص مفعول الفعل، دلالة على أهميته، كأنه قال: ويخصون بعض المال الحلال بالتصدق به، وقد أسند الله الرزق إلى نفسه، فقال: (مما رزقناهم) للتنبيه على أن الإنفاق يكون من الرزق الحلال الذي هو من عند الله وعن الطريق الشرعي، دون أن تمتد إليه يد بشر فتلوثه في ربح حرام: كالربا أو التجارة بالباطل...إلخ، لأن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا.

* كما رأى بعض علماؤنا الأفاضل أن رعاية الفاصلة أو الفضيلة السجعية، هي السبب في تقديم الفاضل على الأفضل في قوله تعالى من سورة طه: فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى [طه:٧٠] فإن موسى(عليه السلام) أفضل من هارون عليه السلام لاصطفائه بالكلام([3]). ولكننا نرى أن التقديم هنا لم يكن -كما قالوا- لرعاية الفاصلة فحسب؛ بل إن سياق الكلام هو الذي اقتضى ذلك التقديم وتطلبه، فنجد الآية التالية لها مباشرة قد جاءت على لسان فرعون، وتقول: قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمْ السِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى (طه:٧١) فنجد الضمير (له) هنا يعود على أقرب مذكور، وهو موسى (عليه السلام)، ولهذا لم يقل: "برب موسى وهارون" لأن الضمير في هذه الحالة سوف يعود إلى هارون(ع)، والمراد هو: موسى وليس هارون. وقد أنكر القاضي أبو بكر الباقلاني(ت ٤٠٣هـ) أثناء حديثه عن نفي السجع عن القرآن الكريم، وتفنيد حجج معارضيه - أن تكون رعاية الفاصلة سببًا في التقديم والتأخير في الآيات القرآنية، فقال: "وأما ما ذكروه من تقديم موسى على هارون (ع) في موضع، وتأخيره عنه في موضع لمكان السجع، وتساوي مقاطع الكلام فيس بصحيح؛ لأن الفائدة عندنا غير ما ذكروه، وهي أن إعادة ذكر القصة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدي معنى واحدًا من الأمر الصعب الذي تظهر به الفصاحة، وتبين به البلاغة، وأعيد كثير من القصص في مواضع كثيرة مختلفة على ترتيبات متفاوتة، ونبهوا بذلك على عجزهم عن الإتيان بمثاه مبتدأ به، ومكررًا، ولو كانوا فيهم تمكين من المعارضة لقصدوا تلك القصة، وعبروا عنها بألفاظ لهم ، تؤدي تلك المعاني ونحوها، وجعلوها بإزاء ما جاء به، وتوصّله بذلك إلى تكذيبهم، وإلى مساواته فيما حكى وجاء به، وكيف وقد قال لهم: فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (الطور: ٣٤) وعلى هذا يكون المقصد بتقديم بعض الكلمات وتأخيرها إظهار للإعجاز على الطريقتين جميعًا، دون السجع الذي توهموه"([4]). فالباقلاني يرى أن التقديم والتأخير الواقع في هذه الآية ومثله، هو من دلائل إعجاز القرآن الكريم، وتحديه لفصحاء العرب، وعدم قدرتهم على معارضته بأي صورة كانت - وهذا الرأي له وجاهته ومقبول؛ لكنه أغفل جانب السياق الذي يقع فيه التقديم والتأخير ودواعيه في الآيات الكريمة من التركيز على المعنى المراد الاهتمام به، أو تخصيصه، أو جلائه وتبيينه، أو غير ذلك مما يتطلبه السياق، فضلا عن النسق الإيقاعي للألفاظ والذي لا ننكر أثره على القارئ والمتلقي للقرآن، وإن لم يكن هذا مقصودا لذاته؛ وإنما هو تابع للمعنى الإلهي المراد من الآية، ومكمل له.

([1]) المثل السائر : قسم ٢ ، ص ٢٣٠ .
([2]) املاء ما من به الرحمن : ج١ ، ص ١٢ .
([3]) الاتقان : السيوطي ، ح٢ ص ٦٧٤ ، ٩٤٦.
([4]) إعجاز القرآن : الباقلاني ، ص ٦١،٦٢ ، راجع أيضا : كتابنا " من روائع البديع في القرآن الكريم ، ص ٣٩، وما بعدها .

* وقالوا في رعاية الفاصلة أيضا: تقديم خبر كان (له) على اسمها (أحد) في قوله تعالى من سورة الإخلاص: وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ [الإخلاص:٤]. ونرى أن رعاية الفاصلة ليست وحدها التي اقتضت هذا التقديم فحسب، وإنما كان الاهتمام بالمعنى والعناية به قبل ذلك - حيث جاء سياق الآية الكريمة في إثبات الوحدانية لله وحده، ونفي الندية والمساواة والمكافأة لله - فكان الاهتمام بالظرف (له) والعناية به هو الدافع لهذا التقديم أولا، ثم مراعاة الفاصلة ثانيا. فالقرآن الكريم لا يفصل بين المعنى وأسلوب أدائه، بل هما متضامنان معًا في جلاء المعنى، وتوضيحه وتمكينه في نفس القارئ والمتلقي. وقد أنكر الزمخشري على سائله بأن الكلام العربي الفصيح أن يؤخر الظرف الذي هو لغو غير مستقر ولا يقدَّم، وقد نص سيبويه على ذلك في كتابه، فما باله مقدما في أفصح كلام، وأعربه؟ يعني قوله تعالى: وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ وقال: "هذا الكلام إنما سيق لنفي المكافأة عن ذات الباري سبحانه، وهذا المعنى مصبه ومركزه هو هذا الظرف، وكان لذلك أهم شيء وأعناه، وأحقه بالتقديم وأحراه"(١). وقد رأى ابن الأثير أن تقديم الظرف وقع كثيرًا في القرآن الكريم على شاكلة قوله تعالى في سورة القيامة: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ* وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (القيامة: ٢٢ - ٢٤) أي تنظر إلى ربها دون غيره. فتقديم الظرف ها هنا ليس للاختصاص، وإنما قدم من أجل نظم الكلام، لأن قوله تعالى أحسن من أن لو قيل: "وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها" والفرق بين النظمين ظاهر.(٢) ثم يضرب مثالا آخر من سورة القيامة، فيقول: وَالْتَفَّتْ السَّاقُ بِالسَّاقِ (القيامة: ٢٩) فإن هذا روعي فيه حسن النظم، لا الاختصاص في تقديم الظرف. ثم يستطرد قائلا: "وفي القرآن الكريم مواضع كثيرة من هذا القبيل يقيسها غير العارف بأسرار الفصاحة على مواضع أخرى وردت للاختصاص، وليس كذلك. فمنها قوله تعالى من سورة الشورى: صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ (الشورى: ٥٣) وقوله تعالى من سورة القصص: وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (القصص: ٨٨) وقوله تعالى من سورة هود: قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (هود: ٨٨)، ثم يصدر حكمه قائلا: "فإن هذه جميعها لم تقدم الظروف فيها للاختصاص؛ وإنما قدمت لمراعاة الحسن في نظم الكلام، فاعرف ذلك"(٣).

ولا نتفق مع ابن الأثير في قصْرِهِ تقديم (الظروف) في الآيات السابقة على مراعاة الحسن في الكلام فحسب، وإنما كان هذا التقديم طلبه المعنى، وأن دلالته على الاختصاص واضحة جلية، لا ريب فيها وإن أنكرها ابن الأثير أو غيره، فإن إسناد الكلام بعد هذه الظروف إلى صاحب الظرف دون غيره بيِّنٌ واضحٌ. وأنه لا تعارض بين الاختصاص ومراعاة الحسن في نظم الكلام، والتقديم في هذه الآيات يفيدهما معا، فالمعنى هم مقصود أولا، ثم الحسن في النظم يأتي بعد ذلك تابعًا له، لإحداث التأثير على القارئ والمتلقي ثانيا، إذ إنه لا يوجد فاصل بين المعنى وأسلوب أدائه في التعبير القرآني، وفي ذلك تكمن إحدى أوجه إعجازه، وعدم القدرة على محاكاته. هذه واحدة، والثانية - فإن ابن الأثير ناقض نفسه فيما ادعاه من نفي الاختصاص في تقديم (الظرف) في هذه الآيات، واقتصار دواعي التقديم علة مراعاة الحسن في نظم الكلام فحسب، فقد ذكر في مقدمته حديثه عن تقديم الظرف في كتابه "المثل السائر" ما نصه: "وأما تقديم الظرف فإنه إذا كان الكلام مقصودًا به الإثبات فإن تقديمه أولى من تأخيره، وفائدة إسناد الكلام الواقع بعد صاحب الظرف دون غيره"(٤). ثم يضرب لنا مثالا من القرآن الكريم على ذلك فيقول: "وعلى نحو منه جاء قوله تعالى من سورة الغاشية: إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (الغاشية: ٢٥-٢٦) وكذلك جاء قوله تعالى من سورة التغابن: يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي

(١) الكشاف : ج٤ص ٨١٨،٨١٩ .
(٢) المثل السائر : قسم ٢ص٢٢٤، وما بعدها .
(٣) المثل السائر: قسم ٢ ، ص ٢٢٥ .
(٤) نفس المصدر: قسم ٢ ص ٢٢٣.

الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (التغابن: ١) فإنه إنما قدم الظرفين ها هنا في قوله: "له الملك وله الحمد" ليدل بتقديمهما على اختصاص الملك والحمد بالله لا غيره"([١]). ولعل القارئ يدرك بنفسه مدى التناقض الشديد الذي وقع فيه ابن الأثير من خلال ما سقناه، وربما يرجع هذا التناقض إلى ميله الشديد لمراعاة الحسن في الكلام.

* وقالوا : بتأخير الوصف غير الأبلغ في نهايات الآيات من أجل الفاصلة، ونذكر من ذلك قوله تعالى من سورة الفاتحة: الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ [الفاتحة: ٣]، وقوله تعالى من سورة التوبة: لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ [التوبة: ١٢٨]. قال ابن النحاس: فقد قدم (الرحمن) على (الرحيم) لأن الرحمن اسم خاص لله تعالى، ولا يثنى، ولا يجمع، لأنه لا يكون إلا لله وأدغمت اللام في الراء لقربها منها، وكثرة لام التعريف. و(الرحيم) نعت و(جمعه) رَحَمَاء، وهذه لغة أهل الحجاز وبني أسد وقيس وربيعة وبني تميم، ويقولون: بعيرٌ، ولك أن تشم الكسر في الوقف وأن تسكن، والإسكان في المكسور لأجود، والإشمام في المضموم أكثر، ويجوز النصب في (الرَحْمَنِ الرَّحِيمِ) على المدح، والرفع على إضمار مبتدأ([٢]). ويقال: رجلٌ رحيمٌ، ولا يقال: رحمن. فقدم الخاص على العام، وقال ابن عباس: الرحيم والرحمن اسمان رقيقان: أحدهما أرق من الآخر. وقال أبو عبيدة: رحيم ورحمن لغتان، فرحيم (فعيل) من الرحمة، وقال آخرون: الرحمن أمدح، والرحيم أرق. ويقول ابن خالوية: بعد أن ذكر الآراء السابقة: "والذي أذهب إليه أن هذه الأسماء الحسنى كلها صفات لله تبارك وتعالى، وثناء عليه، وهي الأسماء الحسنى، كما قال تعالى من سورة الأعراف: وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (الأعراف: ١٨٠) فسئل النبي عنها؟ فقال (صلى الله عليه وسلم) "تسعة وتسعون اسما من أحصاها دخل الجنة"([٣]).

ونحن نتفق مع أبي عبيدة في أن (الرحمن) و(الرحيم) لغتان: فرحيم (فعيل) من الرحمة، ورحمن (فعلان) من الرحمة، أي أنهما صيغتان من مادة واحدة، وإنْ كان كلٌ منهما يعطي ظلالا من المعنى لا يعطيه الآخر، فـ(رَحْمَن) صفة على وزن (فعلان) وهي تدل على التجدد، نحو قولك: فرحان وعطشان وجوعان...إلخ، فإن الفرح في فرحان ليس صفة ثابتة؛ بل تزول وتتحول، وكذلك في غضبان وعطشان وجوعان ونحوها. وإن هذه الصفة (رَحْمَن) تفيد بأن الله كثير الرحمة للعبد عندما يكون على طاعة الله، ومتمثلا لأوامره، مجتنبًا لنواهيه، وإن حاد عن هذا الطريق فإن رحمته له تتغير، حتى يعود إليه مرة أخرى. أما صفة (الرَّحِيْم) على صيغة (فعيل) وهذه الصيغة تفيد الثبوت، ونحوه قولك: رجل كريم وآخر بخيل، أو طويل قصير، فإن هذه الصفات ثابتة لا تتغير في الرجل، فالكريم لا يكون بخيلا حتى ولو فقد جميع ماله، والبخيل صفة ذميمة لا يتحول صاحبها إلى الكرم ولو ملك الدنيا وما فيها يظل البخل ملازمه، أي ثابت فيه، ونحوه طويل قصير، فصيغة (فعلان) تفيد الحدوث والتجدد، وصيغة (فعيل) تفيد الثبوت، فجمع الله (عز وجل) لذاته الصفتين، ويقول الدكتور فاضل السامرائي: "إذ لو اقتصر على (رحمن) لظن ظان أن هذه صفة طارئة قد تزول: كعطشان وجوعان، ولو اقتصر على (رحيم) لظن ظان أن هذه الصفة ثابتة، ولكن ليس معناها استمرار الرحمة، إذ قد تمر على الكريم أوقات لا يكرم فيها، وقد تمر على الرحيم كذلك، والله متصف بأوصاف الكمال، فجمع بينها حتى يعلم العبد أن صفته الثابتة هي الرحمة، وأن رحمته مستمرة متجددة، لا تنقطع حتى لا يستبد به الوهم لحظة بأن رحمته تعرض ثم تنقطع، أو قد يأتي وقت لا يرحم فيه سبحانه، فجمع الله كمال الاتصاف بالرحمة لنفسه"([٤]). ونرى أن تقديم صيغة المبالغة (الرحمن) على (الرحيم) من أجل السياق، والتدرج في معنى الرحمة، فالعبد قد يتعثر في اتباع الصراط المستقيم، وقد يبتعد عن هذا المنهج بعد

([١]) نفسه : ص ٢٢٤ .
([٢]) إعراب القرآن : ابن النحاس ، مج١،ص١٥ .
([٣]) إعراب ثلاثين سورة من القرآن : ابن خالويه النحوي ، ص ٢٧-٢٨ .
([٤]) التعبير القرآني: فاضل السامرائي ، ص ٣٩-٤٠.

ذلك من رحمة الله حتى إذا ما استقر على الطريق، واستقر الإيمان في قلبه وثبت فإن الرحمة لا تتحول عنه، فينظر الله إليه بالرحمة الثابتة وهي صيغة (الرحيم). فالتغيير يأتي بعده الثبات. (والله أعلى وأعلم بمراده).

خاتمة البحث

وبعد أن عرضنا لآراء بعض القدامى والمحدثين في قضية التأخير والتقديم في نهايات الآيات القرآنية، فإننا نؤكد أن هذا الملحظ البلاغي لم يكن مقصورًا على مراعاة الفواصل القرآنية، أو الفضيلة السجعية فحسب -كما ادعى بعضٌ- وإنما كان هذا التقديم والتأخير في نهايات الآيات من أجل أداء المعنى الإلهي المقصود في الآيات أولاً، ثم جاءت الفاصلة القرآنية بنسقها الجميل الفريد تالية للمعنى تسهم إسهامًا كبيرًا في توصيل هذا المعنى للقارئ والمتلقي، وإبانته، وتقبله بصورة جميلة على النفس، تدغدغ المشاعر، وترقرق الأحاسيس، فلو كانت هذه الظاهرة من أجل مراعاة الفاصلة، أو الفضيلة السجعية، أو رؤوس الآيات فحسب -كما يقولون- وفقا لتباين مسمياتهم للظاهرة لطغت على المعنى المراد في الآية التي وقعت فيها، فتعكسه أو تغيره، وإنما هي تسهم إسهاما كبيرًا في إضفاء ألوان جمالية متنوعة لتقبل المعنى المقصود فيها. إنَّ البحث لا يقلل أو يهون من قيمة التآلف اللفظي، والإيقاع الصوتي الرائع في رؤوس الآيات، إذ تتجلى فيه روعة الإبداع الإلهي في نظم المعنى في صورة طريفة مؤثرة، تسترعي الأسماع، وتستهوى النفوس بطريقة رائعة ساحرة، هزت الآذان العربية منذ فجر نزول القرآن الكريم عندما تلاه الرسول الأعظم (صلى الله عليه وسلم) ولم تكن هذه الأذن الموسيقية التي كانت تدرك مواطن الجمال بفطرتها عهدت مثله في منثور الكلام ومنظومه، ومن هنا تكمن بلاغة القرآن، وفصاحته التي لا تفصل بين جوهر المعنى وأسلوب أدائه. ونستأنس هنا بقول بنت الشاطئ في أن: "مقتضى الإعجاز أنه ما من فاصلة قرآنية لا يقتضي لفظها في سياقه دلالة معنوية لا يؤديها لفظ سواه، قد نتدبره فنهتدي إلى سره البياني، وقد يغيب عنا فنقر بالقصور عن إدراكه"([1]).

إن هذا الملحظ البلاغي اعتمد عليه أسلوب القرآن الكريم كثيرًا في صياغة معانيه سواء جاء في موضع الفاصلة، أو غيرها، وكان استخدامه للفظة القرآنية في هذا الباب استخدامًا دقيقًا وساميًا، نابعًا من المعنى المراد الاهتمام به، والتركيز عليه، مراعيًا فيه سياق الكلام الذي وردت فيه اللفظة، والاتساق العام في التعبير كله، فنجده يقدمها ويؤخرها -في غير الفاصلة- طبقا لمقتضى الحال والمقام، فنجده -على سبيل المثال- يقدم اسم ذات الله تعالى في الأمور ذات الشأن من التعظيم، أو التبرك أحيانا، كما يقدم نبيًا من الأنبياء على غيره لشرفه وعلو قدره تارة، ويؤخر غيره تارة أخرى، ويقدم الإنس على الجن فينة، ويؤخره عنه فينة أخرى، أو يؤخر الأنثى عن الذكر مرة، ويقدمها عليه مرة أخرى، كما يقدم النفع على الضر في موضع، ثم يؤخره عنه في موضع آخر، ويقدم السماء على الأرض تارة، ثم يؤخرها عنها تارة أخرى،..إلخ على حسب ما يقتضيه فن القول، وسياق التعبير القرآني. إنَّ الأسلوب القرآني -كما ذكرنا- لا يفصل بين المعنى وأسلوب أدائه فهو يهتم بالمعنى اهتمامًا كبيرًا، ويهتم أيضا -بالجانب اللفظي، وصياغته اهتمامًا لا يقل عن اهتمامه بالمعنى، باعتباره وعاء المعنى، ومناط التأثير، فهما كلٌّ لا يتجزأ أحدهما عن الآخر، وهنا يكمن السر في الإعجاز القرآني، وعدم القدرة على محاكاته (والله أعلى وأعلم).

[1]) الإعجاز البياني : بنت الشاطئ ، ص ٢٦٨ .

المصادر والمراجع :

١. القرآن الكريم
٢. الإتقان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي، ج٢، ط دار ابن كثير بدمشق، تقديم وتعليق د/ مصطفي ديب البغا
٣. الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق (دراسة قرآنية لغوية بيانية) د/ بنت الشاطئ ، ط٢ ، دار المعارف .
٤. إعجاز القرآن : الباقلاني ، ط٤ ، دار المعارف بمصر ، تحقيق أحمد صقر .
٥. إعراب ثلاثون سورة من القرآن: ابن خالوية، طبعة مكتبة القرآن بالقاهرة، تحقيق محمد سليم، ١٤٠٩م.
٦. إعراب القرآن: أبو جعفر النحاس، مجلد١، طبعة مكتبة النهضة العربية ببيروت، تحقيق زهير زاهد، ١٤٠٥
٧. إملاء ما من به الرحمن : العبكري ، ط١ ، البابي الحلبي ، تحقيق إبراهيم عطوة عوض ، ١٤٨١هـ.
٨. بدائع الفوائد : ابن القيم الجوزية ، ج١ ، المطبعة المنيرية .
٩. البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن: الزملكاني، مطبعة العاني، بغداد، تحقيق د/ الحديثي ود/ مطلوب.
١٠. البرهان في علوم القرآن: بدر الدين الزركشي، ج١،ط١، دار إحياء الكتب العربية، تحقيق محمد إبراهيم .
١١. البيان في روائع القرآن (دراسة لغوية أسلوبية للنص القرآني) : دكتور تمام حسان ، طبعة ١٤١٣هـ .
١٢. تأويل مشكل القرآن : ابن قتيبة ، شرح السيد أحمد صقر ، نشر دار التراث بالقاهرة ، ط٢ ، طبعة بيروت .
١٣. التعبير القرآني : فاضل السامرائي ، طبعة دار عمار بعمان الأردن ، ١٤٢٢هـ .
١٤. تفسير البحر المحيط : أبو حيان ج١، طبعة دار الفكر العربي بيروت ، ١٤٠٣هـ .
١٥. التعبير الفني في القرآن الكريم : دكتور بكري شيخ أمين ، ط دار الشروق ١٣٩٣هـ .
١٦. التفسير الكبير : فخر الدين الرازي ، المطبعة البهية بالقاهرة .
١٧. التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية : دكتور أحمد سعد محمد ، طبعة مطبعة الآداب ، ١٤١٨هـ.
١٨. حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي ج٧ ،طبعة دار صادر ببيروت ،ب. ت.
١٩. درة التنزيل وغرة التأويل : الخطيب الإسكافي ، ط١، منشورات دار الآفاق الجديدة ببيروت ، ١٤١٣هـ .
٢٠. دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجاني ، طبعة الخانجي .
٢١. روح المعاني : الألوسي ، دار الفكر العربي ببيروت ، ١٤٠٣هـ .
٢٢. شرح صحيح مسلم الإمام النووي ، ج٨ ، ط١، دار البيان العربي ، ١٤١٨هـ .
٢٣. الطراز : بحيى بن حمزة العلوي ج٢ ، مطبعة المقتطف بمصر ، ١٣٣٢هـ .
٢٤. الكتاب : سيبويه ، ج١ ، نشر مكتبة الخانجي بمصر ، ١٣٩٧هـ ، ومطبعة بولاق ، ط١ ، سنة ١٣١٦هـ .
٢٥. الكشاف : الزمخشري ، مطبعة البابي الحلبي بمصر ، ١٣٦٧هـ .
٢٦. المثل السائر : ابن الأثير ، قسم ٢ ، ط١، مكتبة نهضة مصر ، تحقيق دكتور أحمد الحوفي ، وبدوي طبانة .
٢٧. مجاز القرآن : أبو عبيدة ، ج١، ط١ ، مكتبة الخانجي ، تحقيق فؤاد سزكين ، ١٣٨٢هـ
٢٨. المحتسب في تبيين وجوه شواذ القرآن : ابن جني ، طبعة دار التحرير ، تحقيق الجندي وآخرون ، ١٣٨٩هـ
٢٩. مختصر في شواذ القرآن من كتاب البديع : ابن خالوية ، مكتبة المتنبي بالقاهرة ، عنى بنشره ج. برجشتراسر
٣٠. معاني القرآن : أبو زكريا الفراء ، طبعة دار الكتب المصرية ، ١٤١٥هـ .
٣١. معترك الأقران في إعجاز القرآن : جلال الدين السيوطي ، مجلد ١ ، طبعة دار الفكر العربي .
٣٢. من روائع البديع في القرآن الكريم : دكتور أحمد عبد المجيد خليفة ، طبعة مكتبة الآداب بالقاهرة ١٤٢١هـ .